لمحة من سيكولوجية الطفل

عود على بدء

للدكتور فضل أبو بكر

شرحنا فى المقال السابق باختصار — آمل ألا يكون مخلاً — ناحية من سيكولوجية الطفل ووعدنا القارىء الكريم بالعود على ما بدأناه . ولما كان وعد الحر دين — كما يقولون — فإنا نفى بوعدنا فى مواصلة البحث حتى يكون القارىء فكرة واضحة جلية على قدر الإمكان عن هذا النوع من الدراسات النفسانية .

إن إدراكنا لحقائق الأشياء يأتى عن طريق الملاحظة والتجارب بواسطة الحواس كالسمع والبصر ، أو عن طريق المقارنة والاستنباط بواسطة العقل والبصيرة . وهذه التجارب مادية كانت أو معنوية تكتمل عندنا شيئاً فشيئاً كقطرات الماء تتساقط على الأناء الفارغ فتحتل فراغه وتفعم سعته . وكما أن الأوانى تختلف من حيث السعة والطاقة كذلك التجارب عند الناس مختلفة فمنها الواسع المترامى ومنها الضيق المحدود الجوانب .

والتجارب نفسها لا بد لها من أسس ودعائم ترتكز عليها ومن ضمن تلك الدعامات نذكر اثنتين هما الذاكرة والخيال وهما موضوع بحثنا فى هذا المقال الموجز .

الذاكرة عند الطفل :

ذكرنا فيما سبق كيفية ملاءمة الطفل — أو غيره من الأحياء — للبيئة التى يعيش فيها وقلنا إن ذلك لا يتم إلا عن الإخضـــاع والتمثيل « Assimilation » وطريق الخضوع والتكييف « Accomodation » .

والذاكرة — كما سيتضح لنا — يكون عملها عن طريق الإخضـاع كما أن الخيال يكون مفعوله من ناحية الخضوع .

وذاكرة الطفـل — كما هو متوقع — تختلف اختلافاً أساسياً عن ذاكرة الكبار لأن الذاكرة جزء من « كلية » العقل والعقل محدود الجوانب ، صغرها عند الأطفال يتناسب مع صغر أعمارهم وأجسامهم وهى ظاهرة فسيولوجية طبيعية .

وطريقة عمـل الذاكرة على وجه العموم تكون بواسطة الطرق الأربع الآتية :

(١) تثبيت الذكريات « Fixation dés Souvenirs »

(٢) بقاء الذكريات « Conservation des Souvenirs »

(٣) مكان الذكريات « Localisation des Souvenirs »

فلماذا أنتم هكذا ؟ أتتوقعون من إنجلترا أن تسلحكم ؟

لماذا لا تنشئون آلات ومعامل لصنع السلاح ؟ أليس عندكم مال ؟ أليس عندكم عقول ؟ أليس عندكم عضل ؟ .

أمس كتب الملحق التجارى للسفارة الأمريكية أن بترول الشرق الأوسط هو ٦٠ بالمائة من بترول العالم . فهل هذا قليل وأى سلاح أمضى من البترول . هل تطير طائرة أو تسير سيارة أو تدب دبابة أو تتحرك سفينة إلا بهذا البترول .

بعد ٣ سنين لا يكفى بترول أمريكا أمريكا شهراً أو بضعة أشهر فى سنة ١٩٥٢ تجوع المدنية الغربية كلها إلى البترول أكثر جداً مما يجوع اللاجئون الآن إلى الخبز .

بعد بضع سنين تتهافت المدنية الشائخة على بترول العراق والحجاز والبحرين وإيران وبترول الصحراء الذى لم يستنبط بعد تهافت النمل على قصعة عسل أو تهافت الذباب على المزابل . بعد بضع سنين يرتفع ثمن لتر البترول من شلنين إلى عشرة شلنات .

ولو شاء أصحاب البترول لأمكنهم أن يرفعوه الآن ولا أحد يمتنع عن دفع الثمن لأنه ضرورى للحياة وللحرب .

يا ناس عندنا سلاح قوى جداً ولا تستعملونه — ليس فى أمة تخاذل كهذا التخاذل وجبن كهذا الجبن

واليهود من أين يأتون بالبنزين لسياراتهم وطياراتهم و ... الخ أليس من بترول العراق والحجاز . يأخذون بترولنا ويحاربوننا به

ياقوم تيقظوا . إن الويل اليهودى القادم عليكم لا تحسون به الآن لأنه لم يقع بعد . ومتى وقع فلا ينفعكم لو ولا ليت .

قيل إن اللاجئين فى شرق الأردن أصبحوا فى درجة من اليأس لا يحتمل وهم يفكرون فى مفاوضة اليهود . وهذا ما يتوقعه اليهود . فإذا حدث سقطت فلسطين كلها فى أيدى اليهود ، ثم تلتها شرق الأردن . ثم ... ماذا وماذا ؟ الويل ثم الويل ...

نور الدين الحرار

(٤) استدعاء الذكريات « Evocation des Souvenirs »

هـذه هى العوامل الأربعة اللازمة للذاكرة حتى تؤدى وظيفتها وسنشرح فيما يلى كل عامل على حدته :

١ — تثبيت الذكريات . إذا عرضنا أمام ناظر الطفل بعض الأشياء أو الصور أو روينا له حكاية بسيطة مسلية وطلبنا منه بعد حين قصير أن يصف لنا ما شاهده أو يقص علينا ما سمعه تبين لنا أن قوة التثبيت ضعيفة عنده كما أن الماديات تكون أثبت فى ذاكرته من المعنويات وأنها تعتمد كل الاعتماد على الحس .

٢ — بقاء الذكريات : يكون عنده بطريقة غير متساوية من حيث المدة فقد ينسى ما تقصه عليه منذ ساعات قلائل ثم يتذكره بعد مضى بعض الوقت كما أن بقاء الذكريات يكون مرهوناً بغريزة تمركز اهتمام الطفل حول نفسه « Egocentrisma » ويبدو الطفل هنا أنانياً مفرضاً كما هو الواقع بدليل أن الأشياء التى تهمه دون غيره أو يرى فيها إرضاء لرغبته تكون أبقى فى ذاكرته وإن كان هذا البقاء نفسه قصير الأمد ، ولكنه عند الأطفال يخضع لسلطان « الوعى » بخلاف الحال عند الكبار إذ يكون بقاء الذكريات من عمل « اللاوعى » .

٣ — مكان الذكريات : ونقصد بذلك المكان الذى تحتله بالنسبة لزمن حدوثها وتتابعها وفقاً لدرجة أسبقيتها ، وفى هـذه الحالة يتضح لنا ضعف ذاكرة الطفل لأنه يجهل فكرة « الزمن » ومن هنا يتعذر عليه ترتيب الذكريات ومن هنا كان لغطه وخلطه للحوادث ، ولا ينتظم ترتيب ذكريات الطفل وإحلالها المكان اللائق لها إلا مابين العام السابع والحادى عشر من عمره إذ يكون وقتئذ قد كون فكرة عن الزمن .

٤ — استدعاء الذكريات : هو نوع من الاجترار لما يختزنه مستودع الذاكرة إذ يتسنى للكبار أن يستدعوا ذكرياتهم ، وقد تسعفهم في كثير من الأحيان لأنه فى استطاعتهم أن يوجهوا تفكيرهم فى ناحية خاصة ويتحكموا فيه بخلاف الحال عند الأطفال إذ يكون بطريقة تلقائية غير إرادية كالبغاء وهذا ما يحدث عند الطفل ما بين سن الثانية إلى الخامسة وهو ما نشاهده عند الأطفال حينما يسمعون قطعة من المحفوظات فيكون إلقاؤهم لها بصوت على وتيرة واحدة لا تتغير نبراته بطريقة حرفية تلقائية خالية من الفهم والوعى لما يلقونه .

أسباب ضعف ذاكرة الطفل :

قلنا إن تثبيت الحوادث وبقاءها وترتيبها حسب الزمن واستدعاءها عند اللزوم فى ذاكرته كل ذلك إنما يكون بطريقة بدائية غير مكتملة ، وذكرنا الأسباب المؤدية لذلك . وهنالك عاملان يؤديان إلى ضعف ذاكرة الطفل وهما : (١) النسيان . و (٢) تشويه الذكريات وتبديلها فى ذاكرته .

١ — النسيان : يحدث عند الكبار لعدة أسباب : منها « الفسيولوجية » بمعنى أن يعترى الذاكرة نوع من « التأكد » وعدم القابلية للاستيعاب بسبب التعب الجسمى أو العقلى . وهنالك أسباب « سيكولوجية » كالصدمات النفسية العنيفة التى تحدث فى النفس نوعاً من القبض « Inhibition » فينشل التفكير ويغيض معين الذاكرة . وأسباب « باثولوجية » كما يحدث فى بعض الأمراض العقلية كالذهان والهستيريا ، أو بعد نوبة الصرع ، أو لأمراض معدية أو وبائية كالحمى التيفودية والالتهاب السحائى ، كل هـذه الأمراض تسبب ضعفاً فى الذاكرة ينتج منه النسيان .

كل ما ذكرنا من أسباب إنما هى شخصية تعترى الشخص نفسه فتسبب له النسيان . وهنالك أسباب أخرى خاصة بالأشياء « Odjectives » تتصف بها تلك الأشياء فتسبب أو تساعد على نسيانها . مثال ذلك تفاهة الأشياء والأثر الضعيف الذى تتركه فى الذاكرة فلا يلبث أن يزول وتختفى معالمه . ومنها كون الأشياء بغيضة على النفس غير محببة لها فتلفظها لفظ النواة وتسقطها من حسابها .

أما عند الطفل فأكبر سبب للنسيان ناشىء عن انحطاط درجة تفكيره الذى يشمل الذاكرة أيضاً ولأن إدراكه « Perception » للاشياء خاطىء وقد سبق أن شرحنا ذلك وبينا الأسباب المؤدية إليه وهى غير الأسباب المؤدية للنسيان عند الكبار .

٢ — تشويه الحوادث وتبديلها فى ذاكرة الطفل : تأخذ الحوادث والأشياء صورة ممسوخة مشوهة فى ذاكرة الطفل وهو يعتقد بصحتها ، كما أنه من الصعب بل المتعذر فى كثير من الأحيان الوصول إلى تغيير هذا الوضع الخاطىء فى ذاكرته .

ولنضرب لهـذا مثلا وهو إذا روينا قصة لطفل ورجوناه

بعد قليل من الوقت أن يروى لنا ما سمع أو يقصها على طفل آخر ورجونا هذا الأخير أن يقصها على طفل ثالث تبين لنا فى النهاية أن القصة الأولى قد مسخت وكادت معالمها أن تزول ؛ وذلك أن كل طفل يزيد عليها من الحواشى والتعاليق بما يتفق وهواه ؛ كما نلاحظ ظاهرة أخرى وهي نزعة الطفل إلى « الخرافة » Fabulation « كما قد تبقى آثار هذه الظاهرة عند الكبار ولكنها تصدر منهم عن « وعى » بخلاف ما يحدث عند الأطفال إذ تصدر من « اللاوعي » .

الخيال عند الأطفال :

علمنا مما سبق شرحه بأن الذاكرة عامل لابد منه للاءمة البيئة وهى عند الطفل تخضع لظاهرة الإخضاع « Assimilation » ماؤها التحيز والأنانية والمادية ، وهى صفات فسيولوجية وسيكولوجية لازمة لنمو الطفل .

إن الذاكرة والخيال يعملان معاً ويكمل كل منهما الآخر ؛ ولكن فى بدء حياة الطفل يكون أثر الذاكرة أوضح ظهوراً وأقوى مفعولا من أثر الخيال الذى يكون فى بادىء الأمر ضئيلا جداً ، ثم ينمو بنمو جسم الطفل وعقله وهو بلا شك أسمى مرتبة من الذاكرة ، ويعد خطوة واسعة إلى الأمام فى سبيل التطور العقلى ، وهو بالعكس من الذاكرة يخضع لظاهرة الخضوع والمصانعة « Accomodation » وهو العامل الثانى اللازم للاءمة البيئة ، وظاهرة الخضوع والمصانعة هى ظاهرة شاقة عسيرة على الطفل وفيها نوع من التضحية من جانبه .

والخيال — على وجه العموم — هو المقدرة على رسم صور لما وعيناه أو تأملناه من فكر وأشياء ، ثم الربط بين تلك الصور والأفكار وإبرازها جليه واضحة فى مخيلتنا فى شبه « لوحة » « Tableau » كاللوحات الزيتية التى يصورها ويرسمها الفنانون والرسامون .

والخيال ضد الواقع ، وإذا قيل عن إنسان إنه خيالى فمعنى ذلك أنه ليس واقعياً ، وكما يعرف الفيلسوف الفرنسي « باسكال » « Pascal » بأنه قد يكون مصدراً للأخطاء والأغلاط

يختلف خيال الكبار عن خيال الأطفال لا فى وسمه وخصوبته وذكائه عند الكبار فحسب ، ولكن فى نوعه وطريقة عمله ، فهو أجنح إلى المادية يعنى بها أكثر بكثير من عنايته بالمعنويات كما أنه تلقائى « Spontanée » يصل إلى الهدف عن أقرب طريق .

فإذا ما شاهد الطفل مثلا قطرات الندى فى الصباح الباكر تكلل الحشائش أو تتدلى من أعطاف الورد فقد يتبادر إلى ذهنه فوراً بأن الورد حزين باك يذرف الدمع ؛ وإذا رأى فراشاً ملوناً « Papillons » يتطاير فى الحقول فقد يظنه زهوراً طائرة .

فمن هنا نرى أن خيال الطفل يصل إلى هدفه من غير كبير عناء . وقد يتراءى لنا فى هذه الحالة بأن للطفل مسحة شاعرية لأن الشاعر فى مثل هذه المواقف وبعد أن يكد خياله ويتذوق ما فى المشهد من جمال وروعة لا يقول أكثر مما قاله الطفل بأن الورد قد احمر خجلا أو يبكى حزناً ، أو أن الزهور تتطاير فرحاً أو هلعاً ، وكل ما هنالك من فرق هو أن الشاعر يحلم ويتذوق والطفل يجزم ويجسد ما يقع تحت ناظره ويرتسم على خياله .

يقول الفيلسوف « أوجست كنت » مؤسس مذهب الإيجابية بأن الخيال يمر بثلاثة أطوار :

الطور الأول : هو الطور الدينى فقد تخيل الإنسان الأول فكرة الدين والآلهة ، وهى فكرة مرماها الفسيولوجية ، والسيكولوجى هو ملاءمة الإنسان لبيئته وأمله فى الخلود تتجلى فيها ظاهرتا الإخضاع والخضوع بصورة جلية واضحة . يخضع الآلهة ويتقرب إليها حتى إذا ما فاز منها بالحظوة والرضا استعمل بدوره تلك الحظوة وذلك الرضا فى إخضاع بيئته من طبيعية واجتماعية وأصبح أقوى نفساً وأشد مراساً فى حربه الدائمة السرمدية مع تلك البيئة .

ذكرنا أيضاً فى المقال السابق نأن «الحيوية» «Animisme» هي من مميزات عقلية الطفل يشاركه الإنسان الأول فى هذه الصفة إذ كان يعير الأصنام والجادات شيئاً من الحيوية والإرادة والتفكير ومن هنا كان يخشى بأسها ويرتجى معونتها . كذلك الطفل فى سنه المبكرة يرى فى بعض الجادات حياة وإرادة ، فانظر إليه يناجى لعبته ويناغيها حيناً ، ثم لا يلبث أن تتغلب عليه صفة القلق السريع والتحول المفاجىء فينبذها ويقصيها. وقد تتغلب عليه غريزة « الإخضاع » والسيطرة وحب الذات إذا لم تسر على هواه أو تتكيف على صورة خاصة كما لو كانت ذات وعى وإرادة .

الطور الثانى : هو الطور « الرومانتيكى » والوهمى يظهر فيه

الطفل تقدماً محسوساً ، فبعد أن كان فى الطور الأول يعتقد فى حيوية بعض الجمادات من أدوات لعبه تتضح له ماهيتها الحقيقية ، ولكنه فى هذا الطور يلجأ إلى « الغرض » ويستعمل « المجاز » فيتخيل مجازاً بأن لعبته كائن حى لأن فى ذلك لذة شاعرية نفسانية وهذا الغرض نفسه إنما ينتج عن « الوعى » . ويمكننا أن نعتبر هذا الطور بداية الشاعرية والخيال الحقيق . كذلك بعد أن كان الأطفال فى الطور الأول يعتقدون فى وجود « بابا نويل » ولا يرتابون فى أمره وبأنه هو الذى يهبط من السماء فى صبيحة رأس السنة الميلادية وعيدها ويأتيهم بالهدايا والتحف يبدءون يشككون فى أمره بل ينكرون وجوده وإنما هى حيلة ودعاية من والديهم وذويهم يقصد منها جلب السرور إلى أنفسهم. غير أن هنالك نوعا من خيبة الأمل تحدث للأطفال حينما تتبين لهم حقيقة « البابانويل » أو غيره من الأشياء التى كانوا يتخيلونها على هواهم ؛ لهذا يفرضون مجازاً وبمحض وعيهم وخيالهم بأن « البانويل » يهبط من أعلى السماء ويأتيهم بما يشتهون لأن فى الوهم الروما نتيكى لذة نفسية ، كما أن ذلك يحلو للكبار ويشعرون بشىء من السرور لبقاء آثار هذا الطور الرومانتيكى عالقة فى أذهانهم وإن كنا لا ننكر بأن غبطة صغارهم هى العامل المباشر لجلب السرور إلى أنفسهم . وهذه اللذة النفسانية يشعر بها مؤلفو قصص الأطفال والأمثال الخرافية مثل أمثال لافونتين الخرافية .

الطور الثالث : يتولد فيه عند الطفل كبير من الوعى وينقد فيه ما كان يسلم به تسليما آليا تلقائياً « Sens Critique » كما يجنح إلى الواقعية ويصبح خياله مرتبطاً منظما بعد أن كان مفكك الحلقات مفقودها فى أغلب الأوقات وهو ما يظهره خطأ أو بتراءى للانسان وسمه بالنسبة لمقلية الطفل هذا الخيال الذى كان واسعاً سطحياً — لتفككه يصبح عميقاً — لتركزه وربطه — محدود الجوانب . كما تبدو عند الطفل آثار قوة الملاحظة.

كما أن آثار الطور الثانى لا تزال تبقى لدى الطفل ولكنها تضمحل شيئاً فشيئاً ويحل محلها الخيال العلمى وهو كما يلقبونه « بطور البناء » هو بداية الإنتاج والابتكار لدى الطفل .

هذا وقد يعترى الخيال نوع من الشذوذ فى سن المراهقة وهى كما نعلم أخطر الأطوار فى نمو الطفل جسمياً وعقلياً ونفسانياً نذكر بعضها باختصار .

١ — « الميثومانية » Mytinmahole وهى نزعة يجنح فيها لخلق الأكاذيب والمقدرة على حذقها وتصبح له عادة وهواية لا ينفك عنها بل تلازمه طيلة حياته إذا لم يبادر بعلاجه منها .

٢ — « البوفارزم » Bovarysme وهو نوع من « الپقالومانيا » هو تخيل المراهق بأنه ذات مصونة وشخصية مرموقة .

٣ — « الشزوبدية » Schigoidie وهو أخطر أنواع الشذوذ والأمراض النفسانية التى قد يصاب بها المراهق . ومن خواصها وعوارضها أن المراهق يستسلم « لأحلام اليقظة » ويستحل الاستغراق فيها يطلق لخياله العنان ويسبح فى ملكوت الأوهام ثم يجنح إلى العزلة يهاب المجتمع أو يحتقره فى بعض الأحيان ويبنى « قصوراً فى الهواء » كما يقول المثل .

هذا الشذوذ قد يصاب به بعض الفلاسفة والفنانين ولكنه يقف عندهم عند هذا الحد . أما لدى الطفل فقد تشتد وطأته ويفضى به إلى ما هو أدهى وأمر ، ونقصد بذلك داء « الفصام » Schidophrén e

ومن علامات ظهوره عند المراهق هى اشتداد عوارض « الشزوبدية » فينطوى الطفل على نفسه انطواء تاماً ويبدو خجولا متكتما ولا سيما فى حضرة من هم مثل سنه ، وإذا أرغم على مجالسة غيره فقد يفضل أن يكون ذلك مع الكبار .

يصور له خياله آفاقاً بعيدة وأهدافاً عالية تصبو نفسه إلى تحقيقها ولكنه لا يبدى مجهوداً لتحقيقها لأن المجهود يتطلب مواجهة الواقع ومصارعة الصعاب وهو ما يفر منه فراراً فيفضى به الحال إلى الإخفاق فيحز ذلك فى نفسه ويزيد من فصامه فى شكل « دائرة خبيثة » وكلما ازداد تحفزه وطموحه وتوثبه ازداد إخفاقه وابتعاده عن غايته على حد قول الشاعر :

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليبس

أو كما تقول الحكمة القائلة « السائر على غير هدى كلما ازداد جداً ازداد عن غرضه بعداً » .

هذه لمحة مختصرة من سيكولوجية الطفل علّ القارئ أن يجد فيها بعض الفائدة .

(باريس) فضل أبو بكر

عضو بعثة فاروق الأول السودانية بفرنسا